

امسية سريانية في كنيسة عتيقة

غادة شبیر مالکة الرنین

مرة أخرى يأخذنا مهرجان البستان الى المنابع، الى الجذور. وميرنا البستانى، الحريصة على ان تكون الاسابيع السنوية الخمسة ذات نكمة حضارية تثقيفية اكثراً منها مهرجان استهلاكية، والراصدة معظم مهرجان هذه السنة لموزار (في الذكرى الـ 250 لولادته)، تقدم لنا قمة الارث الغربي مع قمة الارث المشرقي.

الى الكنيسة هذه المرة. الى مار انطونيوس خاشباو (غزير) حيث كنيسة الدير الختيرة، المرممة باتقان، تضم في سقفها فتحات صفيرة هي فوهات جرار مختبئة في قلب السقف ل تستقبل الصوت العاري (بدون ميكروفون) وتوزعه على ارجاء الكنيسة ترددات رائعة افضل من تكنولوجيا مكبرات الصوت الحديثة.

عند بقعة محددة من المذبح، تحت باقة من فوهات الجرار فوق، وقفت غادة شبیر في تقوى المصليات، بالصوت المجرد من كل تكنولوجيا مساعدة، وسافرت بنا الى امسية سريانية عابقة بهذا الارث العريق الجذوري، فاستحالت حجارة الكنيسة مريانا تعكس الصوت وتوزعه برشاماً على الجمع المنتصب داخل الكنيسة كما في جثي الصلاة.

القسم الاول من الامسية (22 مقطوعة) سحيق القدم، تراتيله طقسية مارونية طالعة الافنان من السريانية الام، نصوصاً وألحاناً (من "الحاش الماروني" نقلها الى العربية الاب يوحنا حجا، اشتراكاً مع غادة شبیر بحثاً وتنسيقاً)، طلعت بها غادة بصوتها الحافي، منها الممدود كمبحة راهب، ومنها الضئيل كلمات شمعة، وصوتها يراوح بين طبقات عريضة واخرى خفيفة، بين جواب وقرار، بين همس خفير وآخر جهير، وهي تسيطر على صوتها المتمكن في احتراافية متمكنة عالية.

القانون تابعها طوال الامسية، توزعت عليه انامل ماريا مخول لا مرافقه دائمة بل مرة مدخلاً طقسيأ الى الترتيلة، مرة في فاصل متواضع، ومرة في دخول الى مناخ الترتيلة، ثم ينسحب بهدوء على رؤوس اوتاره ليترك وحده صوت غادة يرسم لنا في نبراته الوثقى مرة خيالات رهبان في خشعة صلاة عند رواق دير عتيق، مرة موكب نساك يدورون داخل الصومعة في مسيرة شموع صامتة، ومرة يحمل الينا صوتها كورساً اذا جوقة تخدم القدس، ولا جوقة ولا قداس بل صوتها يتتردد بينما في خفضاته وعلواته، في نفس مرتاح ولا تقطيع، يتماوج الى مدى قريب او بعيد، فيستحيل القانون مرة هو التصويت، ومرة صوتها هو الذي يستحيل رنين اوتار القانون.

تراتيل القسم الاول ترقى الى نحو 1000 سنة، ادت غادة معظمها بالسريانية الاصلية، وببعضها بالعربية، وبقي صوتها في كلتيهما متمتعاً بالقدرة نفسها على مستوى الاداء والاحساس واللفظ ومخارج الحروف، ومرات يحتمل ترجيع الـ "أيسون" في جمالها صوتية نادرة حملت الينا نسارة ارث مبتي على طقس ديني ومناخ تقوى ومضمون لاهوتى، الثالث الذي جاءتنا من مصادر سريانية هي في اساس الحان كثيرة لا تزال حتى اليوم تنهل منها منابع ومصادر وتأثيرات طالعة من الموسيقى السريانية الخاميسية (ذات المسافات الصوتية الخمسة المعروفة بالـ "بنتاتونيك")، والمتميزة بأنها لا تتبع نمطاً واحداً في القياسات ضمن الانشادية الواحدة بل قد تختلف قياساتها، وهذا ما جعلها قريبة من التراث الشعبي وناحية مع الزمن صوب المناخ الطقسي، فامتزج فيها الشعبي بالديني، وبات جزءاً عريقاً من طقوس الناس، ثم اختلط النغم السرياني بالشعبي فبني العمود الفقري للنغم الفولكلوري.

ولأن غادة شبيه تتقن هذا الانشاد العريق، عوّضت عن صعوبته بأدائها المتمكن (من هنا جدارتها بأن تكون مسؤولة في الكونسرفاتوار اللبناني عن الانشاد السرياني، لندرة هذا الاختصاص). ومن ملامستها تخوم التجويد البيزنطي العريق في تطوره المتقدم (المتبرعم أحياناً من الانشاد السرياني) بلغ بنا صوتها حد أن ينسينا تشابهاً في بعض اللوازם نفاه أداؤها غير المتشابه، فحملنا إلى حالة نسياناً معها اننا نصفي إلى نصوص (سريانية) لا نفهمها، بل وصلتنا في أداء مكتمل، كما حملنا إلى التذوق المأني لنصوص بالعربية ("انا ام الحزينة"، "مبارك من فدانا بموته"، "رفعت على عرشك"، "رج الموت"، "فوق الصليب مات رب الاكوان"، "ربى يسوع الفادي الحبيب") بعيداً عن التمويجات المجانية المصطنعة، والصوت المعكتوس في الطبقات العالية: جاء صوتها طقسيّاً في نبراته، ليتوريجياً في أدائه، ناهداً إلى السماء بسحبات متواصلة طويلة النفس" بعيدة عن مشهدية الصوت الفنائية واحتفالياته الاستعراضية.

القسم الآخر من الامسية (17 مقطوعة) كان كله بالعربية، مقطوفاً من نصوص والحان (من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) منسوبة إلى تقميشات من الخوري عزيز الجزيتي والأخوين رزق وبشارة فرزان والاب بولس الأشقر وسواهم ممن جاؤوا ببعضها من حلب (مناخ القدود ومحاذاة الطرب) وببعضها الآخر من مصادر طقوسية مارونية قديمة تجمعت لتؤلف ارثاً بعضه ليتوريجي ("يا ام الله يا حنونة"، "قدوس قدوس"....) وببعضه الآخر ("يا بنت ناصرة الجليل"، "يا خالق الاكوان"، "يا راية افتخار فوق لبنان"، "مجد مريم يتعظم"....) يحاذي الليتوريجيا، تبرعمت منه لاحقاً الألحان عصرية تأثرت به. وما كان من تلك الألحان سابقاً للنص بدا النص فيه خاضعاً لـ"تلبيبات" لفوية أو لفظية، بينما النصوص الموضوعة قبل اللحن جاءها اللحن بدون مذات مفعولة، لابساً أبيات القصيدة الموزونة المقفاة.

تجربة غادة شبيه الممتازة، يعصمها إنها طالعة من الثقافة الأكاديمية. فهي تحمل الدبلوم في الفناء الشرقي والماجستير بامتياز في الانشاد السرياني والفناء العربي الاندلسي من جامعة الروح القدس (الكسليك) وتزاول فيها تدريس الفناء العربي، وتدريس الانشاد السرياني في الكونسرفاتوار اللبناني. وهي تمكنت من جذور التراث اللحمي لبيبراتوار حتى باتت تتقنه باحترافية عالية، وتسسيطر فيه على صوتها بقدرة راسخة باتت معها أقرب إلى تقنية التجويد منها إلى مجرد الأداء، حتى ليحمل صوتها، في كثير من هنietas أدائهما، إلى إشعال الرغبة التقوية في الصلاة. وأجمل الأصوات ما كان من الصلاة والصلوة يعود.

هنري زغيب

